الفصل الأول

فتنة الفلسفة

١ — تمهيد

لماذا لم تعد الفلسفة اليوم محبوبة ؟ ولماذا اقتسم أبناؤها — أى العلوم — ميراثها ، وألقوا بها خارج الدار ، كأنها الملك لير Lear ، فى عقوق أشد قسوة من رياح الشتاء ؟

كان أقوى الرجال فى قديم الزمان على استعداد أن يبذلوا أرواحهم فى سبيلها ؛ فقد آثر سقراط أن يكون شهيداً لها من أن يعيش موليا الأدبار أمام أعدائها ؛ وخاطر أفلاطون بنفسه مرتين ليفوز بمملكة لها ؛ وعشقها مرقص أوريليوس أكثر من عرشه ؛ وحُرِق برونو حياً ولاءً لها. وكانت الفلسفة يوماً ما مصدر خوف للعروش والبابوات فألقوا المؤمنين بها فى السجن حتى لا تسقط الأسر الحاكمة . ونفت أثينا بروتاجوراس ، وارتعشت الإسكندرية أمام هيباتيا . وخطب أحد البابوات العظام ود إرازمس خوفاً منه . وطارد الحكام والملوك فولتير من بلادهم ، ثم أكلت الغيرة نفوسهم عندما انحنى العالم المتحضر فى النهاية أمام عظمة قلمه . ومنح ديونيسوس وابنه أفلاطونَ حكم سراقوسة . وجعلت معونة الإسكندر الملكية من أرسطو أعلم رجل فى التاريخ . وكاد الملك التلميذ أن يرفع فرانسيس بيكون إلى زعامة انجلترا وحماه من أعدائه . ونازل فردريك الأكبر فى منتصف الليل ، بعد نوم قواده العظام ، الشعراءَ والفلاسفة ، حاسداً إياهم على اتساع ممالكهم غير المحدودة ونفوذهم الخالد .

كانت تلك الأيام عصر عظمة للفلسفة ، حين طوت فى شجاعة كل معرفة تحت جناحها ، وتقدمت فى كل مكان صفوف التقدم العقلى . كان الناس يمجدونها فى ذلك الزمان ، إذْ لم يكن شىء يعد أشرف من محبة الحق . ووضع الإسكندر ديوجينس فى أول منزلة بعده هو فقط ، وأمر ديوجينس الإسكندر

أن ينتحى جانباً حتى لا يحجب جسمه الملكىّ الشمسَ . واستمع الحكام والمفكرون والفنانون فى سرور إلى أسباسيا ، وحج عشرة آلاف من الطلبة إلى باريس ليأخذوا العلم على أبيلارد . لم تكن الفلسفة حينذاك العانس ذات الحياء التى تحبس نفسها داخل الأبراج بعيدة عن أعمال الدنيا . لم تخش عيون الفلسفة الصافية ضوء النهار ، بل أقدمت على العيش فى خطر ، ورحلت بعيداً إلى بحار مجهولة . أكانت تقنع أبداً فى تلك الأعوام التى تقربت فيها من الملوك أن تحد نفسها فى هذه الحدود الضيقة التى تقيدها اليوم ؟ لقد كانت يوماً من الأيام ضوءاً متعدد الألوان يملأ أغوار الأنفس حرارة ونوراً ، ولكنها الآن تابع مظلم يدور فى فلك العلوم والمذاهب المدرسية . لقد أتى عليها حين من الدهر كانت أعظم عروس فى سائر العالم العقلى ، وشمخت على خدامها السعداء . أما الآن وقد تجردت من جمالها وسلطانها فإنها تقف منعزلة بائسة لا يبجلها أحد[1].

ليست الفلسفة محبوبة اليوم لأنها فقدت روح المغامرة ، ذلك أن ظهور العلوم المفاجىء استلب منها واحداً بعد الآخر عوالمها القديمة الشاسعة ، فأصبحت « الكوسمولوجيا » علم الفلك والجيولوجيا ، و « الفلسفة الطبيعية » علم الحياة والطبيعة ، وتحولت « فلسفة العقل » فى هذه الأيام إلى علم النفس . لقد هربت منها جميع المشكلات الواقعية والبارزة ، ولم تعد تعنى ببحث طبيعة المادة وسر الحياة والنمو ، أما « الإرادة » التى دافعت عن « حريتها » فى مئات من المعارك الفكرية فقد تهشمت فى عجلة الحياة الحديثة الآلية ؛ والدولة التى كانت مشكلاتها ذات يوم من اختصاصها فهى ميدان سعيد لنفوس صغيرة وقلّ أن تطلب شرف نصائح الفلسفة . ولم يبق لها إلا قمم الميتافيزيقا الباردة ، وألغاز الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) الصبيانية ، ونزاع أكاديمى حول أخلاق فقدت كل أثرها على الإنسانية . بل حتى هذه النفايات سوف تنتزع منها ، حين تنشأ علوم جديدة تغزو هذه الميادين بالبوصلة والمجهر والمسطرة . ولعل العالم ينسى أن الفلسفة كانت موجودة ، وأنها حركت القلوب وأرشدت العقول .

---

(١) يجب أن ننوه ببعض الاستثناءات ، فقد خلب برجسون ألباب المستمعين بفصاحته ، وكان لبرتراندرسل شرف إخافة إحدى الحكومات .

٢ ــ أصحاب المعارف Epistemologs

والفلسفة على النحو الذى دونت به خلال مائتى العام الأخيرة قد تكون جديرة بهذه الاستهانة وهذا الإغفال . كيف أصبحت الفلسفة بعد موت بيكون وسبينوزا ؟ أصبحت فى الشطر الأعظم منها إبستمولوجيا [١] ، (نظرية المعرفة)، وهى التى كان يبحثها علماء الكلام فى العصر المدرسى ، إنها المعرفة الفنية والمستورة Esoteric ، إنها النزاع الغامض وغير المفهوم حول وجود العالم الخارجى . لقد انصرف ذلك العقل الذى كان يمكن أن يصنع الملوك الفلاسفة إلى تعمق البحث فى تحليل الأدلة التى تؤيد أو تنفى إمكان وجود النجوم والمحيطات والبكتريا والجيرة فى حالة عدم إدراكها . وقد استمرت هذه المعركة التى تشبه المعركة بين الضفادع والفيران مائتين وخمسين عاماً دون أن تخرج بثمرة لها قيمة فى الفلسفة أو الحياة ، وبفائدة لأى شخص اللهم إلا فائدة طابع الكتب .

ويرجع بعض اللوم فى هذا كله إلى عبارة ديكارت البسيطة التى تكاد تبلغ حد السذاجة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود». ذلك أن ديكارت كان يأمل فى أن يبدأ فلسفته بأقل ما يمكن من الافتراضات ، فامتحن « بالشك المنهجى » جميع اعتقادات الناس، بل بديهياتهم ، وحاول أن يبنى مذهباً متماسكاً للمعرفة من هذه المقدمة الوحيدة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » . وقد كان من الخطر العظيم أن نجعل الوجود معتمداً هذا الاعتماد على الفكر ؛ وأجمعت العقول على أن هذا الأساس يجعل الوجود امتيازاً أرستقراطياً ، وقد يذهب الزهاد بفضل سلطان ذلك الأساس إلى حرمان جنس بأكمله، لا من النفس فقط (كما أراد أن يفعل ذلك فاينجر Weininger) بل من الحقيقة .

---

(١) Epistemology هى نظرية المعرفة ، Theory of Knowledge ، والاصطلاح من اللفظة اليونانية Episteme أى العلم . ولم يكن القدماء من فلاسفة العرب يستعملون لفظة « المعرفة » بل « العلم » ، ولكننا آثرنا استعمال المعرفة دون العلم لأن اللفظة الأخيرة أصبحت تطلق فى مقابل Science . ونظرية المعرفة تبحث فى العقل البشرى ومبادئه ومناهجه لا من الناحية البسيكولوجية بل من الناحية الميتافيزيقية .. ومن أمثلة هذه المباحث هل المعرفة فطرية أو مكتسبة . (المترجم) .

أما الخسارة الكبيرة فقد أصابت الفلسفة ، إذ أن بناء تصور للعالم على هذه الحقيقة وهى أن شخصاً واحداً يفكر ، جدير بأن يخلق مثل هذه الشبكة من الصعوبات التى ظل أصحاب المعارف عشرة أجيال يجتهدون فى حلها بغير نتيجة . وأول كل شىء هذا الـ « أنا » فى عبارة ديكارت مما كانوا يتصورونه « نفسا Soul » روحية لا مادية . ثم إن الجسم ، فيما نفترض ، لا يمكن أن يتحرك إلا حين يتصل بغيره من الأجسام ؛ كيف إذن يمكن أن يؤثر هذا الروح اللاجسمانى فى جزيئات المخ المادية ؟ ونشأت عن هذا المأزق الطريف عجائب مذاهب المادية والمثالية والتوازى النفسى . واحتج صاحب مذهب التوازى بأن العقل والمخ مختلفان اختلافاً كبيراً ، وأن أحدهما لا يمكن أن يؤثر فى الآخر ، وأن سلسلتى الأحداث المادية والعقلية ، المخية والفكرية ، يجب أن تكونا مفترقتين متميزتين بغير أن تؤثر إحداهما فى الأخرى ، بل هما متوازيتان بشكل عجيب. واحتج المادى بأن « العقل » ما دام يؤثر أثراً لا ينكره أحد فى الجسم ، فينبغى أن يكون شبيهاً بمادة الجسم ، فالعقل جسمانى ومادى كالمرارة التى تفرز الصفراء . واحتج المثالى بأنه ما دامت الحقيقة الوحيدة التى يمكن أن نثق بها هى تلك التى ابتدأ ديكارت منها — حقيقة الفكر — فجميع أنواع الوجود الأخرى ليست حقيقية بالنسبة إلينا إلا باعتبار أنها مدركة بحواسنا ومبينة بعقولنا ؛ فالجسم مُدْرَك حسى ، والمادة ليست إلا حزمة من الأفكار .

ونشأت بذلك حرب بهيجة ؛ ولم تبق اليوم إلا الحرب فقط وذهبت البهجة . وقد يظهر بين حين وآخر فيلسوف من أصحاب المعرفة تشرق البسمة على كتاباته مثل برادلى ووليم جيمس . وقد يظهر فى بعض الأحيان من يفهم أن « مذهبه » ليس إلا لعبة ، فهو يلعبها بغمزة عينه مثل دافيد هيوم . أما سائر الباقين فقد بلغت رزانتهم حد الموت ، وأطال الفلاسفة — من جون لوك حتى رودلف إيكن Eucken — وجوههم ، وزادت مع كل جيل طولا ، حتى تستقيم مع مذاهبهم الكئيبة . وأعلن الأسقف بركلى أنه لا شىء يوجد إلا حين يدركه الإنسان أو الله . ولم يبتسم الأسقف بقدر ما نعرف ، ولو أننا نشك فى أمر هذا الإيرلندى الماهر .

أما أنه لا شيء يوجد فى « أى عقل » بل فى « هذا » العقل الذى يدرك ، فلا ريب أنها حقيقة تبلغ مبلغ السذاجة والسخف واللغو . ولكن ما أبعد العالم عن هذه العبارة التى تلتبس غالباً بها ، وهى أنه لا شيء يوجد إلا إذا كان مدركاً . وقد كان ذلك اللبس لازماً وثميناً لأولئك الفلاسفة الذين ارتجفوا من المادية الخشنة ، مادية هولباخ ، ومولسكوت ، وبوخنر . ولقد كان بركلى بارعاً حين تخلص من كل مادية بضربة واحدة فى الصميم بإثبات أن المادة لاتوجد ؛ لقد كان عمله بناء شاهقاً فريداً فى بابه من الشعوذة المنطقية ، وينبهنا بحق إلى أن الذين يدرسون الفلسفة يجب أن يفتحوا أعينهم على الفيلسوف . ولكن غشه كان بسيطاً ، وكان ينبغى على الأسقف أن يتردد إزاء هذا الغش التقى . ومن أقوال أناتول فرانس : « إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الكذب والأدب » (١) والآن كم من هذه الإبستمولوجيا المثالية يندرج تحت باب الأدب ؟

ليس معنى ذلك أنه لا توجد مشكلات فى نظرية المعرفة . ويعلم الله أن فيها مشكلات كثيرة مما تسنح لنا الفرصة لبيانه . ولكن هذه الأحاجى الخاصة بالعلاقة بين الذات والموضوع ، والطريقة التى يعرف بها العارفُ المعروفَ ، والعناصر الموضوعية والذاتية فى المعرفة ، وموضوعية المكان والزمان ، والصفات التى نخلعها على الأشياء إلى أى حد تتعلق بالأشياء وإلى أى حد تتعلق بالعقل الذى يدركها — وهذه كلها بجميع تفصيلاتها أحاجىُّ لعلم النفس ، وميادين للملاحظة والتجربة المتكررتين المضبوطتين ، ولم تعد مشكلات خاصة بالفلسفة ، كما خرجت عن نطاقها أسرار التحول الكيمائى Metabolism أو كيمياء قطعة مشوية من اللحم ، وكل مشكلة تتعلق بالفلسفة كهذه المشكلة التى لا تتعلق بها إلا من جهة اتصالها بسائر غيرها . ومن الحطة أن يغتصب ممثل واحد فى هذه الدراما الكبيرة للأفكار جميع الأدوار ، وأن يلقى وحده جميع العبارات فى تمثيلية الفكر الفلسفى الحديث .

---

(١) Brousson, J. J. Anatole France en Pantoufles. p. 134

٣ ــ اللاهوتيون Theologians [١]

ويكاد يشبه ما سبق سوءاً الزعم بأن وظيفة الفلسفة القيامُ بدور الناقد للمنهج العلمى . وهنا أيضاً نجد الرغبة تتسلل لتحتضن الفكر ؛ ذلك أن الأساتذة المدافعين عن اللاهوت حين عجزوا عن بيان لا حقيقة Unrealty المادة اتجهوا إلى إظهار اللائقة بالعلم . وما ذهب إليه ماخ Mach ، وبيرسون Pearson، وبوانكاريه Poincaré — من أن نتائج العلم ليست إلا صيغاً « مختصرة » لـ «عادات» عن طبيعة لا يمكن أن تلاحظ ملاحظة كاملة أبداً ، وأن هذه النتائج قد تُنقض وتستبعد عقب ملاحظات أوسع — قد تلقفها قوم للدفاع عن علم اللاهوت . فهاهنا فرصة ذهبية لبيان نقص العقل ووقوعه فى الخطأ ، وأن العلم لا يقدم لنا اليقين بل الاحتمال فقط ، وبناء على ذلك يمكن أن تستخرج جميع العقائد العزيزة علينا فى طفولتنا من المتحف ، ثم تكسى بثياب جديدة من عبارات غير مفهومة ، وتباع للجيل القادم على أنها بضاعة لم يصبها إلا تلف يسير . وهبَّ قوم من كل مكان يفحصون فى جد بديهيات الرياضة ، ومفهومات المكان والزمان ، والعدد والقياس ، والكم والكيف ، وانتهوا بعد النظر إلى التعاليم القديمة Abracadara [٢] إلى وجود مهدى منتظراً ، أو سانتا كلوز .

فلا غرابة بعد هذا الخداع المعيب أن ينبذ فضلاء الناس الفلاسفة . إذ ما جدوى كل هذا المنطق إذا لم تكن أقيسته إلا ستاراً غير أمين يخفى وراءه آمالنا الخفية ؟ وفى ذلك يقول برادلى Bradley : « الميتافيزيقا هى الكشف عن أسباب باطلة لما نعتقده بالغريزة ، ولكن الوقوع على هذه الأسباب غريزة كذلك [٣] ». وقد تكون الميتافيزيقا فى بعض الأحيان هى إيجاد أسباب باطلة لما نود أن يعتقده الآخرون . وكان فولتير أميناً حقاً حين قال إنه يرغب أن يؤمن طاهيه وخادمته

---

(١) يسمى هذا العلم ثيولوجى Theology ، أو العلم الإلهى ، نسبة إلى ثيوس باليونانية أى إله ، ودرج الاصطلاح عند الفلسفة المسيحية على أن يقال علم اللاهوت ، وهو عند المسلمين علم الكلام . (المترجم) .

(٢) كلمة دينية تكتب فى عدة أسطر يقل كل سطر منها بحرف حتى تبلغ حرف الألف ، ويتكون من الكلمة شكل مثلث الألف رأسه ، وكانوا يلبسونها تعويذة من المرض (المترجم) .

(٣) Appearance and Reality, p. XIV

بالمعتقدات التقليدية لزمانهما ومكانهما ، وقد ظن أن هذا يقلل بعض الشيء فرصة سلب مجوهراته أو تسميم طعامه . وقال لوتز Lotze : إن النظرية الفسلفية محاولة لتسويغ نظرية أساسية عن الأشياء سبق اعتناقها فى فجر الحياة[1] . وكتب نيتشه الأمين يقول : « إن جميع الفلاسفة يزعمون أن آراءهم الواقعية قد كُشِفَتْ بطريق جدل ينشأ فى داخل أنفسهم ، وهو جدل إلهى ، نقى ، جامد ، لا صلة له بهم ... على حين يدل الواقع على أن فكرة متحيزة أو قضية أو اقتراحاً هى على العموم رغبة قلوبهم قد تجردت وتهذبت ، ثم أخذوا يدافعون عنها بالأدلة التى يجتهدون فى الحصول عليها بعد نشأة الفكرة »[2].

ولعلنا نجد هنا رءوس الأخطاء التى تشوه الفلسفة : فهى تسيء إلى الحقيقة فى الوقت الذى تبحث عنها ، وتصبح المدافعة عن عقيدة مؤقتة ، وتقصر مع الأسف عن ذلك الضمير العقلى ، وذلك الاحترام الصابر لطلب الوضوح ، وذلك الانتباه العسير إلى الأحوال السلبية ، مما يتميز به عالم مثل همبولد Humboldt أو دارون ، أو فيلسوف « أدبى » غير محترف مثل ليوناردو أو جيته . ولما كان المدرسيون Scholastics الذين يُنْظمون خطأ فى سلك الفلاسفة ، لاهوتيين فى ابتداء أمرهم ، فقد أحدثوا بدعة إخضاع البحث عن الحقيقة لنشر الإيمان . وكانت أعظم تآليفهم الجوامع Summas عبارة عن كتب صفراء رسمية تصدر عن مكتب الدعاية فى الفاتيكان لحرب الزندقة . وكانوا يقولون بصراحة إن الفلسفة تمهيد للاهوت «Philosophia ancilla theologiae» فالفلسفة خادمة اللاهوت . ومع أن آباء الفلسفة الحديثة العظام — بيكون وديكارت وسبينوزا — قد احتجوا على هذه الخطيئة الفلسفية ، فقد سلم أحفادهم فى هذا العصر إلى حد كبير بالتقاليد القديمة .

وأخذت أخطاء الفلسفة الأخرى تنمو من هذه الصبغة اللاهوتية كما يتزايد بشكل غامض نمو العلة الناشئة عن مرض موروث . وإذا لم يكن غموض الفلسفة راجعاً إلى نقص صدقها ، فما الشيء الآخر الذى يعزى هذا الغموض إليه ؟ ولا ريب أن بعض الظلمة التى تغشى الفكر الحديث ترجع إلى خداع الحقيقة ، ووعورة الاعتبارات الكونية ؛ على أن الغموض إذا كان من هذا الضرب وحده فلا ينبغى أن يقف حجر عثرة فى سبيل اهتمام الإنسان ، فهذا شللى Shelley

(١) In Muirhead, Contemporary British Philosophy, p. 15.

(٢) Beyond Good and Evi, L, § 5.

غامض ، ولكن من منا لا يمجده على الأقل بقلبه ؟ . والمرأة غامضة ، ولكن أى رجل لا يفتنه هذا الجانب من النقص فيشغل نفسه على الدوام بالنفاذ إلى لب ذلك الغموض وحل ذلك اللغز ؟ كلا . . فى الفلسفة الحديثة غموض آخر يختلف اختلافاً بيناً . عندما يغازل الرجل يكون فهمه للغزل أكثر صعوبة منه حين يحكى حقيقته ، إذ لكل واقعة أكثر من تصور ممكن ، والبارع وحده هو الذى يستطيع أن يجعل باطله متماسكاً كالحق . ولكن البارعين فى التزييف لا يصبحون فلاسفة ، لأن السلك السياسى فى أمس الحاجة إليهم ، وتبقى الفلسفة الإلهية فى أيدى روائيين من طبقة دنيا تنحل عقدتهم الروائية عند أول اتصال بهذا العالم الحى .

وجملة القول إن هذا الكذب الأولى هو الذى يولد المذهب الفكرى Intellectnalism العقيم السائد فى النظر الحاضر . ومن لا يثق فى وحدة عقله يتجنب المشكلات الحيوية للمعيشة الإنسانية : إذ فى أى لحظة قد يكشف معمل الحياة الكبير عن أكذوبته الصغيرة ، ويتركه عارياً يرتعش فى وجه الحقيقة . ومن أجل ذلك يبنى لنفسه برجاً عاجياً من المؤلفات المستورة والمجلات الفلسفية الفنية ، التى لا يجد الراحة إلا فى صحبتها ؛ بل إنه ليخشى واقعية منزله المثيرة . إنه يهيم بعيداً ، وبعيداً جداً عن زمانه ومكانه ، وعن المشكلات التى يستغرق فيها أهل وطنه وعصره . ولا تعنيه بل تفزعه الأمور التى تتصل حقاً بالفلسفة ، ولا يحس بأى هوى يدفعه إلى ربط بعض الأشياء ببعضها الآخر ، ولا إلى وضع شىء من النظام والوحدة فى فوضى عصره الكثيرة . ولكنه ينزوى خائفاً فى ركن صغير ، ويعزل نفسه عن العالم بطبقة فوق طبقة من الاصطلاحات الفنية ، وعندئذ يبطل أن يكون فيلسوفاً ويصبح من أصحاب المعارف Epistemologist

ولم يكن الأمر على هذا النحو فى اليونان ، حيث كان الفلاسفة أقل اضطلاعاً بالتدريس وأكثر اشتغالا بالتفكير . ولقد حوّم بارمنيدس بتفكيره حول لغز المعرفة ، ولكن الفلاسفة السابقين على سقراط ظلت أعينهم مفتوحة بمنطق معتدل على الأرض الثابتة ، وآثروا الكشف عن أسرارها بالملاحظة والتجربة على توضيحها بالجدل ، فلم يكن بين الإغريق من ينطوى على نفسه إلا القليل .

ولنتأمل صورة ديمقريطس ذلك الفيلسوف الضاحك ؛ ألا يكون رفيقاً ذا خطر لأولئك المدرسيين الجامدين الذين حولوا النزاع حول واقعية العالم الخارجي إلى مقالات ذاعت فى العصر الوسيط عن عدد الزوايا التى يمكن أن تستقر فوق رأس إبرة ؟ ولنستحضر صورة طاليس الذى تحدى باحتكار السوق الذين قالوا إن الفلاسفة قوم بُلْه ، فحقق ثروة كبيرة فى عام واحد . ولننظر إلى صورة أنكساجوراس الذى صنع للإغريق ما صنعه دارون ، فأحال بركليس من سياسى عملى إلى مفكر ورجل دولة . ولنستعرض صورة سقراط الذى لم يرهب الشمس أو النجوم ، وأفسد فى مرح الشباب ، وقلب الحكومات . ترى ماذا يمكن أن نعمل بهؤلاء المتفلسفة المشوهين العقيمين الذين يتسكعون الآن بأبواب تلك المملكة التى كانت عظيمة فى قديم الزمان ؟ لم تكن نظرية المعرفة عند أفلاطون وعند أولئك الأبطال من السابقين عليه ، إلا مدخلا للفلسفة شبيهاً بالغزل الذى يسبق الحب ، فقد يستمتع المرء بنظرية المعرفة ساعة ، ولكنها لا تكفى فى إطفاء جوى محب الحكمة . ونحن نجد أفلاطون بين حين وآخر يغازل فى محاوراته القصيرة مشكلات الإدراك الحسى ، والتفكير ، والمعرفة ، ولكنه كان يمد بصره فى تآليفه الكبرى فوق ميادين أكثر سعة ، فبنى لنفسه مدناً فاضلة ، وأخذ يتفكر فى طبيعة الإنسان ومصيره . وأخيراً شرفت الفلسفة عند أرسطو فى سائر ميادينها غير المحدودة وعظمتها اللانهائية ، فقد كشف جميع قصورها وجملها بالنظام ، ووضع كل مشكلة فى مكانها ، فقدم كلُّ علم فروضَ الطاعة للحكمة . لقد عرف أولئك القوم أن وظيفة الفلسفة ليست أن تئد نفسها فى ظلمات الإبستمولوجيا ، بل أن تقتحم بشجاعة كل ميدان للبحث ، وأن تلم بأطراف كل معرفة حتى تنسق الأخلاق الإنسانية ، والحياة البشرية ، وتلقى الضوء عليها . لقد فهموا أن ميدان الفلسفة ليس لغزاً صغيراً يختفى وراء السحب ، ويخلو من الاهتمام أو التأثير فى أمور الناس ، ولكن ميدانها هو المشكلة الشاسعة الشاملة لمعنى الإنسان وقيمته وإمكانياته فى هذا العالم اللانهائى المتدفق .

٤ — العلماء

وإذ كان هذا كله يصور لنا ما ليس للفلسفة ، أو ما لا ينبغى أن يكون لها ، فقد بقى لنا أن نقول ما الفلسفة ؟ أو ماذا يمكن مثالياً أن تصبح ؟ أيمكن أن نعيد ملكة العلوم إلى ميدانها وقوتها السابقين ؟ أيمكن أن نتصور الفلسفة مرة أخرى على أنها المعرفة الموحِّدة والموحِّدة للحياة ؟ أنستطيع أن نضع تخطيطاً لنوع من الفلسفة قد يجعل عشاقها قادرين أولا على حكم أنفسهم ثم الدولة ، أولئك الجديرون حقاً بأن يكونوا ملوكاً فلاسفة ؟ (١)

والفلسفة فى الاصطلاح الفنى ، كما عرفناها منذ زمن طويل ، هى : « دراسة التجربة ككل ، أو دراسة شطر من التجربة فى علاقته بالكل (٢) ، ويتضح فى الحال أن أى مشكلة يمكن أن تكون مادة للفلسفة بشرط أن تدرس من زاوية شاملة فى ضوء سائر التجارب والرغبات الإنسانية . ذلك أن طابع العقل الفلسفى ليس فى دقة النظر بمقدار سعة النظرة ووحدة الفكر . يجب أن نستبدل الأنواع الكلية بالأنواع الأزلية Sub specie totius Sub specie eternitatis التى ذهب إليها اسبينوزا . الواقع كلتا النظرتين تتركزان على النتيجة نفسها كما تلتقى العينان على الشىء المرئى ؛ غير أنه إذا كان فى استطاعة الإنسان أن يجمع تجاربه فى كل منظم نسبياً ، فإن رؤية الأشياء من عين الأزل ميزة الآلهة الخالدين ، ولعلهم غير موجودين .

ولا تحتاج صلة العلم بالفلسفة إلى مزيد من الإيضاح : فالعلوم هى النوافذ التى ترى الفلسفة العالم من خلالها ، أو هى الحواس لهذه النفس ؛ وتصبح معارف العلوم بغير الفلسفة عاجزة مضطربة كالإحساسات التى ترد إلى الذهن المشوش فيؤلف منها الأبله قصة . لقد كان سبنسر على حق حين قال : الفلسفة هى أعم معرفة ؛ ولكنه كان كذلك على باطل : لأنها ليست معرفة فقط ، إذ تتضمن ذلك النظر السامى والصعب الذى ترتفع فيه مجرد المعرفة لتصبح نظرة شاملة تنظم

---

(١) يشير المؤلف إلى نظرية أفلاطون عن الملك الفيلسوف التى بسطها فى « الجمهورية » (المترجم)

(٢) Philosophy and the Social Problem, p. 1.

اضطراب الرغبة وتوضحها . إنها تشتمل على تلك الصفة الغريبة المتميزة التى تسمى حكمة .

والفلسفة بغير العلم عاجزة : إذ كيف تنمو الحكمة اللهم إلا على أساس المعرفة المكتسبة كسباً صحيحاً ، بالملاحظة الأمينة والبحث الصادق ، تسجلها وتوضحها عقول بعيدة عن الهوى ؟ وبغير العلم تتدهور الفلسفة وتنحط ، إذ تنعزل عن تيار النمو الإنسانى ، وتقع أكثر فأكثر فى سخافات المدرسية الكئيبة . ولكن العلم بغير فلسفة لا يصبح عاجزاً فقط بل مخرباً ومدمراً . والعلم وصفى : إنه ينظر بالعين أو التلسكوب ، بالميكروسكوب أو الاسبكترسكوب ، ثم يحدثنا عما يراه . ووظيفته أن يلاحظ الوقائع المعروضة بعناية ، ويصفها موضوعياً وبدقة دون نظر إلى نتيجتها بالنسبة إلى الإنسان . هذا نتروجلسرين أو غاز الكلورين ، فمهمة العلم تحليلهما فى هدوء ، وإخبارنا ما هذا المركب أو هذا العنصر بالضبط ، وماذا يمكن أن يعمله كل منهما ، من إهلاك مدن بأسرها ، أو تخريب أبهى صروح الفن الإنسانى ، أو إفساد حضارة كاملة ومحوها بجميع ما فيها من لطائف مدخرة وحكمة مدونة — يخبرنا العلم عن ذلك كله وكيف يمكن عمله علمياً ، وسريعاً ، وبأقل نفقة لدافعى الضرائب إذا قدر لهم أن يعيشوا . ولكن هل يجب أن تخرب الحضارات ؟ . . . أى علم يخبرنا عن ذلك ؟ أتكون الحياة أحلى حين تتضخم بالكسب وتتعلق بالملك ، أم حين تستغرق فى الإبداع والبناء ؟ هل الأفضل أن نبحث عن المعرفة وننشد الحقيقة العارية عن الوهم ، أو نطلب النشوة العابرة للجمال ؟ وهل يجب أن نحاول التنازل عن جميع الجزاءات العلوية Supernatural فى حياتنا الخلقية ؟ أيجب أن ننظر إلى المادة من وجهة نظر العقل ، أم ننظر إلى العقل من وجهة نظر المادة ؟ وما جواب العلم عن هذه المسألة ؟ وكيف نلقى الضوء على هذه الاختيارات القصوى فى حياتنا ، اللهم إلا إذا كان ذلك بنور تجاربنا الشاملة ، وبتلك الحكمة التى ليست المعرفة إلا مادتها الخام ، فتجد جميع العلوم من خلال نظرة الحكمة الكلية المكان والنظام والمعنى المرشد ؟

والعلم هو الوصف التحليلى للأجزاء ، والفلسفة هى التأويل التركيبى للكل ،

أو هى تأويل جزء من الأجزاء من حيث مكانه من الكل ، وقيمته بالنسبة إليه . العلم مجلس يقرر الطرق والوسائل ، والفلسفة مجلس يصدر القرارات والمناهج ، فالوقائع والآلات لا قيمة ولا معنى لها إلا فى علاقتها بالرغبة . فإذا كان لا بد للرغبات ذاتها أن تكون متماسكة ، وأن تصبح أجزاء منظمة لشخصية مؤتلفة وحياة موحدة ، فهذا أيضاً من مهام الفلسفة ، ومن أعلى أهدافها .

والفلسفة بالضرورة أكثر اعتماداً على الفرض من العلم . حقاً العلم نفسه يجب أن يستخدم الفرض ، ولكن بشرط أن يكون مجرد بداية فقط . ويجب على العلم ليكون علماً بمعنى الكلمة ، أن يصدر فى ثوب من المعرفة التى يمكن تحقيقها مستقلة موضوعياً عن المنفعة الفردية أو الهوى الشخصى . أما الفلسفة ، على العكس من ذلك ، فتتخذ من العلم والوقائع والمعرفة المحققة بدايات لها (فإذا لم تكن قد فعلت فقد حان لها أن تفعل) ؛ ثم تشرع فى افتراض فروض أوسع حول المشكلات القصوى التى لم نصل فيها بعد إلى حقائق مقررة نهائية . والفلسفة تكميل خطر وخيالى للفهم ، فهى تملأ الفجوات الموجودة عندنا عن المعرفة العلمية بالعالم بافتراضات لا يمكن إثباتها تجريبياً . ومن هذا الوجه يعد كل إنسان فيلسوفاً ، ولو بالرغم منه ؛ ذلك أن أكثر الشكاك حذراً ، أو أشد اللاأدريين تواضعاً ، أو أعظم السلوكيين تمسكاً بالواقع ، يتفلسف فى الوقت نفسه الذى يعلن احتجاجه للعالم أجمع أن الفلسفة مستحيلة . فلو فرضنا أن أحد اللاأدريين كان يعيش فى حيدة كاملة بحيث لا يعتقد أو لا ينكر وجود الله ، ولو فرضنا أنه قد يوزع أفكاره وأعماله بغير تحيز بين القبول والإنكار ، فقد يتوقف حكمه على الفلسفة توقفاً لا حراك فيه ولا حس ، أشبه ما يكون بالإغماء الفلسفى وحالة عدم الوعى بالكون . وهذا شىء عسير وبعيد عن الإنسانية ، لأننا فى الواقع نتخذ جانبين : إما أن نحيا فى الإنكار أو نحيا فى القبول ، ونتصرف كما لو أننا قد اخترنا إحدى المتاهتين المفزعتين اللتين تكونان الفلسفة . فنحن نصنع الفروض ، ولو كما فعل نيوتن . ذلك أن سحر المطلق يجذبنا دائماً .

ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها ؟ وأن الفلاسفة جميعاً خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة فلا يهدأ لهم بال حتى

يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة ؟ وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية أو ما يهدىء به هذه الحرب ؟ ألا يهدم هؤلاء الفلاسفة بعضهم البعض ؟ انظر إلى عمر الخيام يقول فى تجربته :

كنت أغشى وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء

وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقه

فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر

وكنت أخرج من الباب الذى أدخل منه .

أكبر الظن أن عمر الخيام كان يصور قصة ، ولعله لم يخرج حقاً من الباب نفسه الذى دخل منه ، اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع نعليه عند باب المسجد كما يفعل المسلم الورع . ولست تجد أحداً يغشى صحبة عظماء الفلاسفة دون أن يغير عقله ويوسع نظرته فيما يختص بآلاف من المسائل الحيوية . فماذا بدل إيمان طفولة عمر إلى عبادة مشوبة بالشك فى الجمال والخمر ؟ أليست الفلسفة هى التى تضيف إلى رباعيات الخيام هذه العظمة ؟

فليدرس أحدنا تاريخ العلم وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين اليمين والشمال يتبدد فى غمار سعة وعمق إجماع العلم الأساسى واتفاق كلمته . إلى أى نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة ؟ هل يؤيدها علم الفلك الحديث ، أو يسخر من وجهها المغبر ؟ وأين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين ومينكوفسكى وغيرهما الكون رأساً على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم ؟ وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة فى الفيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟ وأين أقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعاداً جديدة بحسب أهوائهم ، ويبتدعون لامتناهيات يحتوى أحدها الآخر كجزء منه ، ويثبتون فى الفيزيقا والسياسة كذلك أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ؟ وأين علم الأجنة اليوم ليرى البيئة الناشئة تحل محل الوراثة التى كانت إله العلم ؟ وأين جريجور مندل الآن ليشهد انصراف علماء الوراثة

عن وحدة الصفات . . . ؟ وأين دارون الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة التغيرات السريعة محل الاختلافات الذاتية والمتصلة فى التطور ؟ وهل هـذه التغيرات هى الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن ؟ وهل نضطر إلى الرجوع فى تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية انتقال الصفات المكتسبة ؟ أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضى نعانق رقبة زرافة لامارك ؟ وماذا نصنع اليوم بمعمل الأستاذ فونط Wundt وباختبارات ستانلى هول ، حين لا يستطيع أى عالم نفسانى من أتباع السلوكيين أن يكتب صفحة واحدة فى علم النفس الحديث دون أن يلتى بمخلفات أسلافه فى الهواء ؟ وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم فى تاريخ قدماء المصريين كشفاً بالأسرات وتواريخها على هواه ، ولا يختلف عن كشوف غيره إلا ببضعة آلاف السنين ؟ وحيث يسخر علماء الأجناس البشرية من تيلور ووسترمارك وسبنسر ، وحيث يجهل فريزر كل شىء عن الدين البدائى لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟ فماذا أصاب علومنا؟ هل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية؟ أيمكن أن تكون «قوانين الطبيعة» ليست سوى فروض إنسانية؟ ألم يعد هناك يقين أو استقرار فى العلم ؟

لعلنا إذا شئنا التماس الاستقرار فى العقل والنفس لوجدنا أنه أقل فى العلم منه فى الفلسفة. ذلك أن اختلاف الفلاسفة يرجع إلى تغير مدلول الاصطلاحات فى عصرهم أكثر مما يرجع إلى العداوة بين أفكارهم . أو قل إن هذا الاختلاف يرجع إلى حد كبير إلى تقلب العلم نفسه ، من جهة تعلقه القوىّ بفرض من الفروض فترة من الزمن ، ثم تشبعه به ، ثم كراهته له ، وتحوله إلى وجه جديد لنظرية حديثة . وبعد ، فأى اتفاق عجيب يوجد فى حكم عظماء المفكرين على المشكلات الحيوية للحياة الإنسانية عندما تنحل أساليب كلامهم المختلفة فى تفكيرهم الأساسى . أما سنتايانا فإنه يعلن فى تواضع أن ليس عنده شىء يضيفه إلى أرسطو ، وكل ما سيقدمه عبارة عن تطبيق لتلك الفلسفة القديمة على عصرنا الحديث ؛ فهل يمكن أن يتحدث أى عالم طبيعى معاصر أو بيولوجى أو رياضى مثل هذا الحديث عن أى عالم يونانى ؟ لقد نقض العلم الحديث اليوم علم أرسطو فى كل ناحية ، ولكن فلسفته ستبقى مشرقة وعميقة فى الوقت الذى يصبح فيه علم اليوم موضعاً للاحتقار والسخرية عندما يلقيه جانباً علم مقبل وثيق لعصر جديد .

٥ — ملكة العلوم

قد نشعر إذن أن الفلسفة لا تزال مَلِكَةُ العلوم Regina Scientiarum، ويجب أن يعترف بها كذلك فى كل مكان إذا لبست ثوب عظمتها القديم، وأخضعت جميع العلوم لخدمتها، واتخذت من سائر أنواع المعرفة آلة لها. فالعالم موضوعها، والكون ميدان اختصاصها. ولكن كما أن الملكة الحكيمة تعيِّن مهرة الحكام فى الأقاليم المختلفة من المملكة، ويعهد هؤلاء الحكام إلى أتباعهم بجمع الوثائق وتصريف الأمور الجزئية، على حين يقصر الحكام وملكتهم أنفسهم على تنظيم التدبير والسياسة، كذلك الفلسفة تقسم مملكتها إلى ميادين متعددة، وتوجد فى جنتها قصور كثيرة.

وأول ميدان فى مملكتها، ودهليز فى دارها، هو ذلك الذى يسمى باسم يخلو من السحر وهو «المنطق»، وكأن الفلسفة قد أخفت جمالها بمحض إرادتها عن أعين الغرباء، وأوجبت على طلابها أن يمروا خلال هذه المحنة أولا حتى يثبتوا جدارتهم بالمشاركة فى مباهجها العزيزة. ذلك أن مباهج الفلسفة تشبه مراقى الحب التى لا تسمو إليها أى نفس وضيعة. وكيف نعلم الحقيقة حين ننظر إليها إذا لم نكن على أقل تقدير قد تعلمنا أن نتصور شبحها، ولم نكن قد تدربنا شتى الاختبارات والامتحانات التى تؤمن أنفسنا من «حضورها الحقيقى»؟ كيف يمكن أن نجيب عن سؤال بيلاطس الخادع؟ أنتبع عقلنا العاجز المغامر، أم إلهامنا العميق الغامض، أم الحكم الغشيم لأعيننا وآذاننا وأيدينا التى تتحسس؟ كيف نصفى حواسنا وأفكارنا من جميع الآراء المتحيزة التى تشوهها، ومن سائر «الأصنام» الخادعة، محتفظين بمصابيح العقل مضاءة حتى تجد كل حقيقة طريقها إلينا، فنرحب بها، ونضعها فى موضعها اللائق؟ كيف ندرب أنفسنا، كما يفعل الرياضيون، على طلب الحكمة ومحبتها؟

وثمة ميدان آخر لا يزال بعيداً عن عرش المملكة وقلبها، هو بيت ذلك التنين العظيم المسمى الإبستمولوجيا «نظرية المعرفة» Epistemology. وإذا كانت أقدامنا قد تعثرت فى مفاوز المنطق، فأعيننا فى هذا الميدان لن تبصر فى الظلام.

سوف نترنح فى أكثر من طريق ، وقد نهيم على مقربة شديدة من فم التنين ، فتسحرنا لغته العظيمة ، ثم نبتلع فجأة فى كهفه الفارغ ، ونصبح بعد ذلك من أصحاب المعارف إلى الأبد . ولكن لا بد أن نواجه هذا الامتحان أيضاً ، وأن نجيب بطريقة مقبولة عن لغز المعرفة ، ومشكلة حقيقة العالم الذى ندركه ومبلغ صدقه . ولعلنا بعد ذلك نخطو إلى الأمام ونقف فى تواضع فى بلاط الملكة العظيمة .

وهناك ميدان ملكى أيضاً هو « الميتافيزيقا » ، وهو مظلم كذلك ولا يستضىء إلا بالنور الذى نجلبه له ، ولكنه زاخر بكنوز تتغذى بها النفس . وهنا نجد أن الطبيعة تخفى ماهيتها الباطنة وتحيرنا بما تقدمه من مئات الحلول . وهنا نجد أن الفلسفة تكشف لنا عن جانب من تلك « الأنغام السامية » التى كانت تغنيها لفيثاغورس ، ذلك أن الطبيعة تصبح بوساطتها واعية ، وتنتقد أهدافها الخاصة ، وتصبح شيئاً له معنى . وهنا قد نستطيع أن نتعمق مشكلات الحياة ، والمخ والعقل ، والمادية والروحية ، والميكانيكية والحيوية ، والجبر والحرية . وما الإنسان؟ أهو شىء مركب من أسلاك وزنبركات وعجلات متشابكة تتحرك من خارج بقوى عمياء من الأرض والسماء ؟ أم هو إله خالق بطريقته الصغيرة المضحكة ؟

وميدان آخر هو « التاريخ » حيث يقدم لنا مئات الألوف من الدهماء وبعض العباقرة من بلاد بعيدة وأزمنة سحيقة حكمتهم ليتسنى لنا أن نتأملها موحدة، ونتعلم دروسها . أهناك أى معنى فى الماضى ؟ أهناك أى قوانين لنشأة الدول وانهيارها تبين ، وقد تحدد، قيام الأمم والأجناس والحضارات وسقوطها ؟ وهنا نعرض لمنتسكيو وباكل Buckle يتحدثان عن أثر الجغرافيا فى مصائر الشعوب . وهنا نجد كوندورسيه Condorcet وهو على فراش الموت يعزى نفسه بفكرة التقدم وقابلية الإنسان اللامحدودة للكمال . ونجد هيجل Hegel يعرض لنا ألعابه الجدلية ، وكارليل أبطاله ؛ ونجد المتطرفين من الغلاة يغنون أنشودة قوة جنسهم ويلعنون ظهور المتبربرين . ونجد ماركس يخيفنا بجبال من الأرقام والحجج التى يسوقها للدلالة على نظرية الجبر الاقتصادى للتاريخ . ولعلنا نصادف فى طريقنا باحثاً أو أكثر يفسر لهؤلاء المفتونين أن حقائقهم ليست إلا وجوهاً من الواقع ،

وأن التاريخ والطبيعة أكثر اختلافاً مما توهموا فى فلسفاتهم . وسوف نجد فى ركن بعيد نيتشه المتشائم يغنى أنشودته عن « الدورة الأزلية » ، ونجد شبنجلر يثبت بحماسة انهيار العالم الغربى .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ميدان آخر سنسمع بحثاً عن « السياسة » . سنفزع بعض الوقت خشية اكتشاف أمريكا . ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى الفزع ، لأن رجالها يناقشون الديمقراطية بغير توقير ، والفوضى بغير خوف . إنهم يحبون الاشتراكية مع علمهم بنقائصها ، ويمجدون الأرستقراطية مع احتقارهم ظلمها المواهب غير ذات الحسب . وفى بعض الأحيان يتحدثون فى حماسة الشباب عن بلاد جميلة تسمى طوبيا utopia (مدينة فاضلة) لا يحكمها إلا الحكماء ، وتزخر كل مدينة بالغنى والجمال .

بهذه الكلمة الأخيرة التى لا تزال تطربنا نغمتها ننفذ إلى قلب الميدان ، ونشخص إلى الفلسفة ذاتها وهى تكشف للمغرمين بها عن الجمال والخلود والخير . ذلك أن للفلسفة غيرة مكتومة من « الفن » ، وتنفس عليها شغفها الخالق للجمال . وهنا ، لا فى العلم ، نجد منافسها العظيم الذى يسعى لغزو قلوب أنبل الناس وولائهم له . وقد تخضع الحكمة فى رقة وهى تسلم بأن عبادة الجمال أولى من البحث عن الحقيقة ، ذلك أن الحقيقة الأزلية تهرب متعاظمة حتى لا تكاد تسمح لنا بأن نلمس أطراف جلبابها ، على حين يرحب الجمال الذى يعلم أنه مقضى عليه بالفناء بإعجابنا ويكافئنا عليه . ولذلك تدرس الفلسفة الجمال فى تواضع ، أما الفن فيجله ويخلقه خلقاً ثانياً . الفن يلتمس الجمال فى حرارة مودة الحب ، وفى عظمة بناء المعابد ، وجلال أشكال التماثيل ، وحرارة الألوان ، وموسيقية الألفاظ ، وتتابع الأصوات العذاب . أما الفلسفة فلا تعرف مع الأسف إلا مشكلات الجمال : ما مصدر الجمال ، وماذا يعنى ، أيوجد فى الصورة نفسها ؟ أم لا يوجد إلا فى قلوبنا العطاش ؟ وهذا هو ميدان « علم الجمال » Aesthetics الذى جعلته عقول المدرسيين قروناً طويلة موحشاً ، ولكنه لا يزال زاخراً بالعجب والبهجة .

وهنا أيضاً فى قلب المملكة ميدان « علم الأخلاق » ، وهو ميدان قاحل

بالتجريدات الأكاديمية ، ولكنه من بعض الجهات أغنى قصور الفلسفة ، لأن فن الحياة أسمى حتى من حياة الفن ، وعلم الأخلاق هو حكمة فن الحياة . وهنا نجد الفلسفة تسمو بمعارفها المتعددة إلى حكمة حية ، وتجمع من قصورها المختلفة الهداية للإنسانية . وبعد فما هى أفضل حياة ؟ وما نفع الخير ، وأى حق يوجد فى القوة ؟ أنجد أسمى الفضائل فى حكمة سقراط ، أو شجاعة نيتشه ، أو سماحة المسيح ؟ أنكون رواقيين مع زينون وسبينوزا ، أو أبيقوريين مع أبيقور ورينان ؟ أتكون اللذة غاية الحياة ؟ هل الحب ينافى الأخلاق إلا إذا وافق القانون؟ وما العدالة ؟ وما رأى العدالة فى عالمنا الصناعى ؟ وهنا نجد أكثر من أى مكان آخر مشكلات حيوية تجعل مصير حضارات بأسرها فى كف القدر . هنا معضلات تمس كل دولة وكل قلب ، وهى مشكلات يبدو بجانبها العلم بتسجيلاته واختصاراته وسائله وصلبه وغازه شيئاً بعيداً وغير إنسانى ، شيئاً أدنى إلى الصلة بالموت منه إلى الاتحاد بالحياة .

غير أن الموت يتعلق أيضاً بالفلسفة ، وعندما يصمت لسان جميع المناقشات ، يتحول الفكر فى خوف لينظر إلى « العدو الأكبر » وتدخل الفلسفة أبواب «الدين». واللاهوت Theology هو البحث فى الكائنات العلوية Supernatunal وصلتها بالإنسان ، ولا تدلى الفلسفة برأى عن هذه الكائنات ، ولكنها تتحدث عن علاقة الإنسان بجملة الحياة ومجموع الأشياء ، وعن أصله على هذه الأرض ومصيره الأخير ، ولو أنها تتحدث حديثاً متواضعاً يتناسب مع الجهل البشرى . إنها تتعلق بمسألة الخلود تلك المسألة التى تتعلق بكل نسيج حيوى . ولعلنا يمكن أن نعرف الفلسفة بأنها مسألة حياة وموت . وأخيراً فإنها تتعلق بالله ؛ ولسنا نعنى إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة ، بل إله الفلاسفة ، وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته . فلو كان ثمة أى عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسايره فى الفكر مع الاحترام . فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر ، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضاً حتى تواجهه بغير خوف . هل النجوم ليست إلا تجمعات عابرة لسدم اعتباطاً ؟ وهل الحياة عرض غروى Colloidal مستمد من تلقاء نفسه وفائض فيضاناً ذاتياً ؟ وهل

الإنسان ليس إلا مركباً كيمائياً مصيره إلى الانحلال ثم الفناء تماماً ؟ وهل نشوة الفن ، وحكمة الحكيم الهادئة ، وتشهد القديسين بإرادتهم ، كل ذلك ليس إلا لمحات بارقة فى البراعم البروتوبلازمية للأرض ؟ وما الموت إلا الجواب عن كل مشكلة ومصير كل نفس . . . إذن فعلى الفلسفة أن تواجه هذا أيضاً ، وأن تسعى إلى إيجاد بصيص من الدلالة والسمو فى عين الإنسان داخل هذه الدائرة الضيقة .

هل لنا أن نشرع فى البداية ؟